مستقبل آسيا بعد هزيمة اليابان

فى منتصف شهر أغسطس الماضى على أثر إلقاء القنبلتين الذريتين الأوليين على ثغرى هيروشيما ونجازاكى ودخول روسيا السوفيتية الحرب ضد اليابان ، انتهت اليابان بعد مفاوضة قصيرة حول مركز الإمبراطور إلى قبول ما تضمنه إنذار بوتسدام من وجوب التسليم للأمم المتحدة بلا قيد ولا شرط . وبذلك لقيت اليابان هزيمتها الساحقة ، وانتهت الحرب فى آسيا كما انتهت فى أوربا بهزيمة ألمانيا واستسلامها فى أوائل شهر مايو الماضى .

وإذا كانت هزيمة ألمانيا النازية وما ترتب عليها من انهيار صروح الطغيان النازى ، وسحق العسكرية البروسية ، تعتبر من أعظم العوامل الحاسمة فى تطور مصاير الأمم الأوربية ، فان هزيمة اليابان وما ترتب عليها من انهيار صرح الاستعمار اليابانى فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى ، تعتبر فاتحة عهد جديد بالنسبة لآسيا والأمم الآسيوية .

لبثت اليابان زهاء نصف قرن تندفع نحو الغرب والجنوب بخطى جبارة ، وتبسط سلطانها تباعاً على مساحات شاسعة من الجزر والأراضى القريبة منها ، وكانت الصين وهى نصف القارة الآسيوية المواجه لها ، هى الهدف الطبيعى للاستعمار اليابانى . وبدأت اليابان سياسة التوسع مذ آنست قوتها ونضجها فى أواخر القرن الماضى . وفى سنة ١٨٩٤ قامت بأول تجربة ناجحة لها فى هذا السبيل حيث اشتبكت مع الصين فى حرب من أجل شبه جزيرة كوريا الصينية التى لا يفصلها عن الجزر اليابانية سوى مجاز ضيق ، وخرجت اليابان من هذه الحرب الأولى بنصر باهر ، واستطاعت أن ترغم الصين على الاعتراف باستقلال كوريا ، وعلى أن تنزل لها عن قسم من منشوريا وجزيرة فرموزا وجزر أخرى فى بحر الصين . ولكن اليابان اضطرت أزاء تدخل الدول الأوربية إلى النزول عما كسبته فى منشوريا واكتفت بما استولت عليه من الجزر .

ولفتت هذه التجربة نظر الدول الأوربية إلى خطر هـذه القوة الجديدة ولم تكن الصين فى الواقع خصيمة اليابان الحقيقية بل كانت فقط ميدان النضال بينها وبين الدول الغربيـة ، وكانت هى الفريسة التى يجرى من أجلها النضال . وكانت الدول الغربية قد بدأ زحفها الاستعمارى على الصين ، وأخذت بمختلف الوسائل تحصل منها تباعاً على حقوق وامتيازات سياسية واقتصادية وإقليمية . وكانت روسـيا التى تسيطر على النصف الشمالى من القارة الآسيوية ، وتشرف على الصين من الشمال . وتواجه اليابان فى الضفة الأخرى من البحر ، هى أخطر خصوم اليابان فى هـذا النضال الاستعمارى السافر ، وكان زحفها المستمر فى منشوريا فيما يلى كوريا ثم حصولها على ثغر بورت أرثر يزعج اليابان ويثير توجسها . وأخيراً وقع الاشتباك المحتوم بين الدولتين ونشبت بينهما الحرب فى سنة ١٩٠٤ وكانت هذه الحرب الروسية اليابانية بالنسبة لليابان تجربة جديدة ، ففيها تشتبك اليابان لأول مرة فى حرب مع دولة من الدول الأوربية العظمى ، وفيها يخوض الجنس الأصفر أول معركة حقيقية مع الجيش الأبيض . ولـكن الدول الأوربية الـكبرى أبدت يومئذ بخصومتها لروسيا أنهـا لم تقدر خطورة هذا النضال ونتائجه . ومنيت روسيا فى هذه الحرب بسلسلة من الهزائم المؤلمة فى البر والبحر ، واضطرت فى النهاية أن تعقد الصلح مع اليابان (سنة ١٩٠٥) وذلك على أن تنزل لهـا عن ثغر بوت أرثر وسكة حديد منشوريا وكذلك عن النصف الجنوبى لجزيرة سخالين الروسية ، وأن تعترف بكوريا وجنوبى منشوريا منطقة للنفوذ اليابانى . والواقع أنه لم تمض أعوام قلائل حتى أعلنت اليابان ضم كوريا إليها (سنة ١٩١٠) ولم تعترض على ذلك دولة من الدول .

وكان لفوز اليابان فى الحرب الروسية نتائج بعيدة المدى . ومن ذلك التاريخ تأخذ اليابان مكانتها إلى جانب الدول العظمى ، وتتوطد دعائم التوسع اليابانى نحو الغرب والجنوب ، وتشعر الدول العظمى بخطورة المنافسة اليـابانية فى تحقيق المغانم الاستعمارية والاقتصادية فى الصين وفى غربى المحيط الهادئ . ولما نشبت الحرب الـكبرى انضمت اليابان إلى جانب الحلفاء ، وخرجت منها بغنم استعمارى جديد هو المستعمرات الألمانية فى الشرق الأقصى ، وهى قاعدة تسنجتاو فى الصين وجزر كارولين ومارشال وماريان ؛ وبذلك امتد النفوذ اليابانى بعيداً فى قلب المحيط الهادئ .

* * *

وبينما كانت الصين تخوض حرباً أهلية لا تنقطع ، وأوربا تنحدر رويداً إلى معترك الأزمات الدولية ، كان الاستعمار اليابانى يعد العدة لتحقيق ضربته الشاملة فى شرق آسيا . وتبدأ هذه المرحلة باستيلاء اليابان على منشوريا فى سنة ١٩٣١ وتحويلها إلى دولة صورية باسم « منشوكو » . وكانت روسيا أكثر الدول الأوربية توجساً من هذا التوسع اليابانى فى مناطق تلاصق أملاكها وثغورها فى الشرق الأقصى ، ولكنها آثرت الهدوء والتريث ؛ وأتبعت اليابان استيلاءها لأعلى منشوريا بغزوها الأقاليم الصينية الوسطى . ومنذ سنة ١٩٣٧ تشهر اليابان على الصين حرباً شاملة وتستولى تباعاً على الثغور والأقاليم الصينية الساحلية ، وتتوغل فى قلب الصين شيئاً فشيئاً . وهنا تلقى اليابان القناع نهائيا وتنذر الدول الغربية بأن ترفع يدها عن الصين ، وأنها سوف تقاوم أية محاولة من جانب هذه الدول للحصول على امتيازات إقليمية أو استعمارية فى شرق آسيا . وكانت اليابان تتحدث فى ذلك اليوم باسم الجامعة الآسيوية وشعارها القائم على جعل آسيا للآسيويين ؛ وكان هذا الشعار يجذب فريقاً من الأمة الصينية . ولكن هذا الزعم لم يكن ليحجب الحقيقة السافرة وهى أن الاستعمار اليابانى يحاول أن ينتزع لنفسه صفة شرعية ليست للدول الأوربية . وكانت أوربا تشغل يومئذ بأزماتها الخطيرة ، ولم تستطع الدول العظمى أن تقوم بأى عمل إجماعى ناجع لوقف هذا التحدى ، وقنعت بريطانيا وأمريكا بمعاونة حكومة شونكنج الصينية الوطنية التى انسحبت إلى الداخل على مقاومة الغزو اليابانى ومدها سرًّا بالمال والسلاح .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت اليابان قد أحرزت فى جولتها الاستعمارية الضخمة نجاحاً باهراً ، وغدت سائر الأقاليم الصينية الساحلية والوسطى مرتعاً خصباً للاستغلال اليابانى ، وغدت الصين أمامها كتلة هامدة ، وانهارت مصالح الدول الغربية . وكانت اليابان ترتبط برباط التحالف مع ألمانيا وإيطاليا بمقتضى الميثاق الثلاثى ، ولكنها لم تدخل الحرب توًّا بل لبثت تجد فى الأهبة وترقب الفرصة السانحة ، ولما بلغت الانتصارات الألمانية أوجها فى أوربا قامت بضربتها الغادرة فى بيرل هاربور فى السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ ،

وهكذا نشبت الحرب بينها وبين أمريكا وحليفتها بريطانيا العظمى . ولم تمض أشهر قلائل حتى استطاعت اليابان أن تستولى تباعاً على جزر الفلبين وبلاد الملايو وسومطرة وجاوة وجزائر ملقا وبورنيو وعدد كبير من الجزر المتناثرة فى أنحاء المحيط الهادىء ، واستولت أيضاً على بورما ، وأخذت تهدد الهند البريطانية كما أخذت تهدد استراليا وزيلندة الجديدة فى الجنوب .

وهكذا بلغ الاستعمار اليابانى ذروة ظفره ، وبسطت اليابان سلطانها القوى على مياه المحيط الهادىء حتى المناطق التى تعتبرها كل من أمريكا وبريطانيا داخلة فى نطاق سلامتها ، كما بسطت سلطانها على شرق آسيا كله ، والقارة الجزرية الهندية الكبرى ، وجنوب شرق آسيا ؛ ولاح مدى حين أنه أضحى من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تنزع اليابان هذا التراث الاستعمارى الباذخ .

ولكن الحوادث تطورت بسرعة مدهشة ، فلم تمض ثلاثة أشهر على هزيمة ألمانيا واستسلامها حتى اضطرت اليابان بدورها أن تخر جاثية أمام القوى الهائلة التى حشدت لسحقها ، وأمام فتك القنبلة الذرية المروع ، وان تذعن للتسليم للأمم المتحدة بلا قيد ولا شرط . وهكذا انهارت قوى العدوان اليابانى فى الشرق فجأة كما انهارت قوى العدوان الألمانى فى الغرب من قبل .

* * *

والآن لنر ماذا يترتب على هذه الهزيمة الغامرة التى منيت بها اليابان وهى فى أوج ظفرها الاستعمارى .

لقد قضى بضربة واحدة على الجهود الجبارة التى بذلها الاستعمار اليابانى مدى نصف قرن فى سبيل التوسع فى مياه المحيط الهادىء وشرق آسيا ، ولن يبقى لليابان سوى الوطن اليابانى المكون من أرخبيل الجزر اليابانية . وهكذا تكون النتيجة الأولى أن تنكمش اليابان فى جزرها القديمة ، وأن تحرم من المواد الأولية والثروات الاستعمارية الوفيرة التى كانت تستخدمها فى إنهاض صناعتها القومية ، وغزو الأسواق الآسيوية ، ومنافسة الدول الغربية فى ميادين الاقتصاد العالمى منافسة قوية مزعجة ، وهو الغزو الاقتصادى الذى كانت تحميه بسلطان الاستعمار السياسى فى المناطق الشاسعة التى تسيطر عليها .

وقد حررت الصين وآسيا الشرقية كلها من كابوس الاستعمار اليابانى ، كما

حررت منه القارة الجزرية الضخمة التى تشمل جزائر الهند الشرقية ، وانهارت سيطرة اليابان على مياه المحيط الهادئ ، وهى التى كانت تمكن لها باحتلال القواعد والجزر المتناثرة فى هذه المياه حتى استراليا وزيلندة الجديدة . وبدا تعود الحالة فى شرق آسيا وفى جنوبها الشرقى كما كانت عليه منذ نصف قرن أى قبل أن تبدأ اليابان حياة الفتح والتوسع التى جعلتها فى بداية الحرب العالمية الثانية أعظم قوة فى الشرق الأقصى وفى المحيط الهادئ .

وتواجه الصين بعد تحريرها مستقبلا جديداً ، ولكنها تواجه فى نفس الوقت خطر الحرب الأهلية والفوضى . وتلك هى معضلة الصين الكبرى ؛ فالصين ليست أمة موحدة الكلمة ، ولا تمثل حكومة شونكنج التى تتحدث اليوم باسم الصين سوى جزء فقط من الصين الكبرى ، وهنالك مناطق أخرى تستمتع باستقلال محلى وتقوم فيها قوى عسكرية إقطاعية . وأعظم القوى المحلية الحاضرة هو الحزب الشيوعى ؛ ويبسط الشيوعيون حكمهم على مقاطعة ينان وغيرها . فهل تستطيع حكومة شونكنج أن تتغلب على هذه القوة الخارجة وأن تجمع كلمة الصين فى ظل دولة صينية موحدة ، وحكومة مركزية يخضع لها سائر الوطن الصينى ؟ إن مستقبل الصين الجديد يتوقف على تحقيق هذه الوحدة ؛ فاذا لم توفق الصين إلى تحقيقها انحدرت مرة أخرى إلى غمرة الحرب الأهلية والفوضى .

ومن جهة أخرى فلا بد لنا أن نذكر موقف الدول المتحالفة من الصين . فلهذه الدول مصالح اقتصادية واستعمارية قديمة لا بد أن تحسب الصين حسابها . وقد اعترفت الصين بالفعل بمصالح روسيا السوفيتية فى منغوليا الداخلية وفى منشوريا ، كما نزلت لها عن ثغر بورت أرثر . ومن المعقول أن تعامل كل من بريطانيا وأمريكا فيما يتعلق بمصالحها فى الصين مثل هذه المعاملة ، فتسترد امتيازاتها والسيطرة الاقتصادية القديمة . ولن تتخذ هذه الامتيازات صورة الاحتلال أو السياسية الأجنبية ، ولكن من الواضح أن الدول الثلاث الكبرى سيكون لها أكبر الأثر فى توجيه الصين الجديدة وفى تنظيمها السياسى والاقتصادى .

وأما جزائر الهند الشرقية (سومطرة وجاوة وجزائر ملقا وبورنيو) تلك القارة الجزرية الغنية التى تملكها هولندة الصغيرة فلم يتضح بعد ما إذا كانت ستعاد إلى الادارة الهولندية . بيد أننا نشك فى أن الدول الكبرى ستقف عند هذا الحل ، وربما وضع نظام جديد للاشراف المشترك على إدارة هذه الجزائر واستثمار

مواردها الغنية خصوصاً بعد ما أصاب هولندة من الضعف والانهيار .

وتسعى فرنسا الآن إلى استرداد الهند الصينية ، ولكن الدوائر المتحالفة تبدى تردداً فى ذلك ، ولا تزال تذكر كيف سلمت فيشى الهند الصينية فى بداية الحرب إلى اليابان ، وكيف اتخذتها اليابان قاعدة للوثوب على بلاد الملايو وجزائر الهند الشرقية . وقد لا تمانع بريطانيا وأمريكا فى النهاية فى أن تسترد فرنسا الاشراف على مستعمرتها السابقة . ولكن هذه الموافقة ربما اقترنت باحتلال أمريكا وبريطانيا لبعض قواعد استراتيجية فى الهند الصينية تكون متممة للقواعد التى تحتلها الدولتان فى البر الصينى ومن جهة فانه يبدو أن فرنسا سوف تواجه مطالب « أنام » القومية فى الحصول على الاستقلال الذاتى .

ويلوح لنا أن هزيمة اليابان سيكون لها أثر عميق فى تطور السياسة البريطانية نحو الهند . ذلك أن بريطانيا تستطيع الآن أن تطمئن الى سلامة الهند وزوال الخطر اليابانى عنها بعد أن فقدت اليابان قواها البحرية والعسكرية وسدت فى وجهها جميع المسالك المؤدية الى الهند . وسيكون فى وسع السياسة البريطانية بعد ذلك ان تقف من أمانى الهند فى الاستقلال الذاتى موقفا أكثر عطفا وسخاء ، وستحصر عناية بريطانيا فى السهر على سلامة الهند من ناحية حدودها الشمالية الغربية ، أعنى من ناحية روسيا . بيد أن الخطر الروسى على الهند لم يبد فى وقت من الأوقات جسيما على نحو ما بدا الخطر اليابانى خلال هذه الحرب ، وقد أشرفت اليابان بعد استيلائها على حدود بورما على حدود الهند البريطانية ذاتها .

* * *

والخلاصة أن القارة الآسيوية سوف تشهد بعد هزيمة اليابان وتحطيم سلطانها الاستعمارى عهداً جديداً . ولا مراء فى أن انهيار الطغيان اليابانى فوز للديمقراطية وقضية الحرية . ولكن يجب ألا ننسى حقيقة العوامل التى قام عليها هذا الصراع وحقيقة النتائج التى سوف يسفر عنها . فقد كانت معركة الشرق الأقصى معركة الاستعمار والنفوذ الكبرى ، وكانت معركة اليابان والدول الغربية ، أو بعبارة أخرى معركة الجنس الأصفر والجنس الأبيض ، على اجتناء السيادة والمغانم الاستعمارية . وقد فازت الدول الغربية بعد صراع مرير هائل بأن تستخلص تراثها الاستعمارى من قبضة اليابان وأن تحطم منافستها الخطرة ، وأن تردها الى عزلتها

القديمة فى داخل جزرها الضيقة . وقد كانت الصين والمحيط الهادئ ميدان هذه المعركة الكبرى . فأما الصين فقد فازت بنوع من التحرير لازال عليها أن توطد دعائمه . وقد حققت روسيا أمنيتها القديمة فى توطيد سلطانها الاستعمارى فى شمال شرق آسيا وفى الحصول على منافذ بحرية دافئة فى مياه المحيط الهادئ وفى القضاء على منافسة اليابان الخطرة فى تلك المنطقة . وحققت أمريكا حلمها العظيم فى الاستئثار بالسلطان فى شرق المحيط الهادئ وأواسطه وتحويل هذا البسيط المائى الشاسع إلى منطقة سلامة قومية ، وسحق الخطر اليابانى الذى كان يزعجها زحفه وتقدمه . وأمنت بريطانيا شر الخطر اليابانى على الهند واستراليا وزيلندة الجديدة ، وتخلصت الى أمد بعيد من منافسة اليابان الاقتصادية فى أسواق الشرق الأقصى .

وهكذا يقوم سلطان الدول الغربية الكبرى ونفوذها فى آسيا وفى المحيط الهادئ على أنقاض الاستعمار اليابانى الذاهب . وعلى ضوء هذا التبدل فى الأوضاع يجب أن يفهم تحرير القارة الآسيوية . على أنه مهما كانت قيمة هذا التحرير النسبى ، ومهما كان يشوبه من معنى السيادة والنفوذ ، فانه يجب أن يعتبر بالنسبة للصين وبالنسبة للقارة الآسيوية خطوة عظيمة الى الأمام .

محمد عبد الله عنان